قلة الوفاء والصداقة فأمعنوا وألحوا وظنّوا أن الأخلاق الفاضلة قد ماتت بموت الأجداد ، فقال أبو فراس الحمدانى :

بمن يثقُ الإنسان فيما ينوبُه ومن أين للحرّ الكريم صحابُ
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وأسرف فى لوم الزمان وأهله فقال لأخ من إخوانه :

وأنت أخٌ تصْفو ونصْفو وإنما الـ أقاربُ فى هذا الزمان عقاربُ

فقد ماتت الثقة ، وأصبح الناس ذئاباً والأقارب عقارب ، لا يتقربون إلا للغنى الموسر ولا يسعون إلا حيث يجدون الحاجة فيقول الشاعر نفسه :

قومٌ إذا أيسرْتُ كانوا إخوة وإذا تربتُ تفرقوا وتجنبوا

ويقول المتنبى فى ذم هذا الزمان وهجائه :

إنالفى زَمن ترْكُ القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمالُ

وهكذا أدبر الزمان وانقلبت الأمور ، فأصبح الممسك عن قبيح الأفعال والمتأخر عن مذموم السعى مشكوراً مذكوراً ذا فضل يؤثر وإحسان يشكر .

ورأى الغزى أن الفضل قد انقضى فقال :

هبْ أن أهل الفضْل عز وجودهم أخلا بساطُ الأرض من إنسان

ولعل الشعراء فى هذه الأزمان المذكورة نظروا إلى الدنيا فما وقعت عينهم على أحد يسمى إنساناً ، والذنب فى ذلك كله ذنب الزمان فخصّوه بهجاء متتابع على العصور ، لأنهم رأوا أن الأيام لا ترفع إلا الفاسدين ولا تخفض إلا الكرام ، ويئسوا من صلاحه وتشاءموا من وجودهم فيه ، وحنوا للماضى لأنهم تصوروه أحسن وأصلح ، والمعرى يجيبهم بهجاء بنى الإنسان قاطبة فيقول فى آدم :

إذا ما ذكرْنا آدماً وفعالهُ وتزويجه بنتيه لابنيه فى الخنا